أوضاع مدينة تلمسان وأحوازها في الخمسينات من القرن التاسع عشر من خلال كتاب

د. الغالي غربي
جامعة الجزائر

مقدمـــــة :

يندرج هذا الكتاب في أدب الرحلات[1] ، الذي نما وتطور بصفة خاصة خلال القرن التاسع عشر نتيجة تزايد وتيرة المتنقلين بين القارة الأوربية ومختلف العوالم ومنها العالم الإسلامي . ومنه أعتبر القرن التاسع عشر قرن الرحلات بلا منازع ، بل إنه القرن الذي يضم أكبر عدد من الإنتاج الثقافي والأدبي الذي يرتكز بالأساس على يوميات الرحلة و مخاطرها . وقد أجمع الدارسون على اعتبار؛ أدب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية ، التي لا يمكن للباحث وبصفة خاصة المؤرخ ، الاستغناء عنها ، لما لها من أهمية علمية . رغم ما يشوب ما كتبه بعض الرحالة من مبالغات وأحكام غير دقيقة وافتراءات ، إلا أن ذلك لا ينقص من أهميتها .

ومن هنا ، فإن أدب الرحلات أداة تزودنا بالمعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية عن الأحوال العامة ، للبلدان التي زاروها وأقاموا فيها، وعن طبائع أهلها ومعالم حضارتهم وتاريخهم ، وهذا يشكل العمل الاثنوجرافي.أي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة خلال فترة زمنية محددة .

أهمية الرحلة التاريخية :

تعود أهمية هذا الكتاب الى أن صاحبه من فئة العلماء ذوي الخبرة والدراية في المواضيع والقضايا التي يتحدث فيها ، وبذلك فإن ما كتبه لم يكن علما جغرافيا وصفيا ، وإنما أدبا جامعا لفنون عديدة كالتاريخ والآثار والسياسة ومعارف علمية أخرى . والأهمية الثانية تتبع ، من أن صاحب الرحلة شاهد لفترة من تاريخ الجزائري فترة تميزت باشتداد وتيرة المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي قابلها تنكيل وقمع وتشريد وتهجير وتدمير من طرف الحكام العسكريين الفرنسيين . أما الأهمية الثالثة فهي أن الكتاب يندرج في السياق أو التوجه العام ، الذي بدأت تنتهجه فرنسا لمحاولة فهم الجزائري . وهذا بواسطة تشجيع الدراسات والأبحاث العلمية المتعددة التخصصات، التي تهتم بتاريخ وحضارة الجزائر مما يمكنها من تجميع حوصلة هذه الدراسات ، واعتمادها كقاعدة أساسية يجب الأخذ بها ، في أي تعامل مع القضية الجزائرية وإشكالياتها . لهذا وجدت هذه المبادرات والمشاريع العلمية التشجيع والدعم المعنوي والمادي من قبل السلطات الاستعمارية المدنية والعسكرية الفرنسية ، وهذا ما ينطبق على الكتاب الذي نحن بصدد دراسته .

مضمون الكتاب :

سبق وأن أشرنا آنفا ، أن هذا الكتاب هو رحلة علمية ودراسية ، قام بها " برجيس " [2] الى تلمسان وأحوازها سنة 1846، ضمنها ملاحظاته ومشاهداته اليومية ، ابتداء من يوم وصوله ميناء المرسى الكبير يوم 6 سبتمبر الى غاية خروجه من مدينة تلمسان في 25أكتوبر من نفس السنة، أي أن الرحلة استغرقت حوالي تسعة ولربعون يوما . لم تنشر الرحلة إلا بعد مرور ثلاثة عشرة سنة ، أي الى غاية 1859 عن مطبعة نيكولا الشرقية في 488 صفحة .

جاءت الرحلة في مقدمة وواحد وعشرون فصلا ، تطرق في المقدمة ؛ الى المكانة الحضارية والعلمية التي تحتلها تلمسان في التاريخ العالمي ، وأهم

المحطات التاريخية التي مرت بها . ورغم اعترافه بأن هناك دراسات كثيرة حول " حاضرة المغرب الأوسط " ، إلا أنه يقول ؛ أنه ركز في كتابه هذا على الجوانب العلمية ، التي من خلال عرضه لها ، كان يرغب في تبيان الأمور على طبيعتها . وفي هذا السياق ينبه المؤلف القارئ ، الى أن ما كتبه في رحلته هذه عن مدينة تلمسان من أفكار ، كان قد نشره في المجلة الأسيوية ومجلة المشرق . وأشار أيضا في المقدمة الى السبب الرئيس لزيارة مدينة تلمسان ، والمتمثل في استكمال تحقيق ترجمة كتاب ؛ تاريخ بني عبد الواد ملوك تلمسان ، الذي كان قد عثر عليه في أول زيارة له للجزائر سنة 1839 . وقد وضح الكاتب أن الهدف المنشود من وراء نشره هذه الرحلة ، كان علميا بحتا ، وأنه التزم فقط ، بذكر الحقائق والحوادث الشخصية التي عايشها وعاينها .

إجمالا ، فإن هذه الرحلة ، عبارة عن وصف دقيق للمواقع التاريخية والمعالم العمرانية والحضارية لمدينة تلمسان والمدن الأخرى ، التي كانت رافدا لها عبر تطور التاريخي والحضاري. وكذلك تعطينا الرحلة ، صورة الى حد ما وافية عن طبيعة الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التي كانت عليها مدينة تلمسان وأحوازها ، في تلك الحقبة التاريخية الحرجة ، والمتمثلة في النصف الأول من القرن التاسع عشر . وكان منهج المقاربة والمقارنة الذي اتبعه الكاتب ، عاملا مهما مكننا من التعرف ولو بصورة جزئية على التحولات والتغييرات التي أحدثتها السياسات الاستعمارية ، وتداعياتها على الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الثقافي للمجتمع التلمساني .

الأوضاع السياسية في مدينة تلمسان وأحوازها :

ومما يشير إليه في هذا السياق أن الأوضاع السياسية والعسكرية في الجزائر لم تستقر للفرنسيين فرغم تراجع الوتيرة العسكرية للمقاومة الوطنية ، إلا أن هذه الأخيرة ما زالت عائقا يحول دون استكمال عملية احتلال الغرب الجزائر.

فما زالت الحاميات العسكرية الفرنسية المتخندقة في الأبراج والمدن الحصينة ، لا تتجرأ على الابتعاد مسافات طويلة ، دون استنفار عام لقواتها . ويذكر في هذا الإطار؛ أن هناك عصابات ــ سماها عصابات اللصوص ــ تجوب المنطقة تتحين الفرص للانقضاض على الفرق العسكرية الفرنسية ، وتأديب القبائل المتعاونة مع السلطات الاستعمارية .[3] ومما يذكره ؛ أن الجنود الفرنسيين لا يغامرون عن الابتعاد عن حامياتهم أكثر من 200 متر، و أنهم كانوا يخصصون قوات إضافية مهمتها حراسة قطعانهم [4]. ومن الأمثلة الدالة على استمرار شعلة المقاومة ، الهجوم الذي تعرض له برج سبدو العسكري في سبتمبر 1845 والذي انتهى بهلاك قائد المركز الرائد Billotوالملازم Dombasle[5].ويشير المؤلف أيضا الى مقاومة محمد بن عبد الله "مولى الساعة " والذي استطاع أن يجمع حوله عددا من القبائل ، وأتخذ عين بلغفار مقرا لإقامته ، ومنها أعلن الجهاد ضد الفرنسيين .

وأستطاع الجنرال Cavaignacحاكم مدينة تلمسان إلحاق الهزيمة بالمقاومين وفرار محمد بن عبد الله الى منطقة الريف بالمغرب الأقصى [6]ومن الأحداث البارزة التي ساقها المؤلف في نفس السياق ، حصار الأمير عبد القادر لمدينة تلمسان لمدة ستة أشهر ، كاد فيها الجيش الفرنسي وقائده Cavaignacالمتحصن بقلعة المشورعلى الهلاك ، لولا النجدات العسكرية الكبيرة التي وصلت المحاصرين من مدينة وهران [7].ومما يذكره المؤلف عن سكان مدينة تلمسان ومدى تعلقهم بمعالم مدينتهم الدينية والحضارية ، أنهم اضطروا الى مد الجيش الفرنسي المحاصر بما يحتاج من غذاء للحيلولة دون قنبلة منارة المسجد الكبير وهو القرار الذي كان قد اتخذه Cavaignacللرد على شدة الحصار[8].

السياسة الاستعمارية الفرنسية :

يورد المؤلف في فصول كتابه نماذجا عدة ، من الممارسات القمعية والزجرية والهمجية التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية إبان الحكم العسكري تجاه

الجزائريين . وكان على رأسها ما تعرضت له معالم مدينة تلمسان التاريخية ، على أيدي قادة فرق الهندسة التابعة للجيش الفرنسي ، من عمليات تخريب وتدمير وتشويه . والمؤلف نفسه يعترف ؛ بأن هذا السوك الهمجي والبربري من قبل قادة فرق الهندسة ، لم يكن منحصرا في مدينة تلمسان وحدها ، بل تعرضت له كل المدن الجزائرية . وقد أظهر المؤلف حزنه الشديد على ما آلت إليه معالم مدينة تلمسان بعد دخول الجيش الفرنسي إليها . هذا الجيش الذي سارع جنوده الى إقامة بيوتا بئيسة على أنقاض البيوت الموريسكية الجميلة ، والتي أخذت أحجارها لاستخدامها في بناءات دفاعية ودعامات لهياكل قاعدية كالجسور والأسوار[9] . وكانت النتيجة ، حسب المؤلف ضياع العديد من الشواهد والكتابات والكنوز الثمينة والتي تعود الى العصور القديمة ، بل وصل استخفاف الفرنسيين بهذه الأخيرة ، الى درجة أنهم كانوا يتفاخرون فيما بينهم بتدميرها [10] .

ونكتفي بما ساقه المؤلف عن الأضرار التي تعرضت لها قلعة المشور ، هذا المعلم الحضاري والتاريخي الذي كان يضم العديد من الأجنحة والدور وقصر السلاطين الذين تداولوا على حكم تلمسان وكذا الحدائق الغناء وملاحقها ، كل هذه المعالم تم احتلالها و تحويلها الى مقرات عسكرية وأمنية وإدارية . ويذكر المؤلف أن السلطات الاستعمارية الفرنسية سارعت الى تحويل الجهة الغربية من المشور بما فيها المسجد الى مستشفى عسكري. أما الناحية الشرقية منها فقد بنيت عليها ثكنة عسكرية. أما المنازل والدور الواقعة على يمين الباب المقبية والمطلة على المدينة ، فقد تم تخصيصها لقادة وضباط الجيش الفرنسي[11]. ولم تكتف الإدارة الاستعمارية بهذا ، بل قامت بعزل القلعة عن المدينة ببناء المتاريس وحوالي 200 منزلا لليهود، مع إزالة العديد من الطرقات والممرات وأقيم على أنقاضها ممرا ترفيهيا مخصصا للفرنسيين[12] . وخلال تواجد المؤلف في المدينة قامت فرقة الهندسة التابعة للجيش الفرنسي بتهديم مقهى و ضريح لأحد الأولياء الملتصق بسور القلعة دون احترام قدسية الأموات، ويذكر المؤلف أن هذه الأفعال

قد أثارت ردود أفعال مستنكرة في الوسط التلمساني المسلم [13] . ومن الأفعال التي أثارت حفيظة المؤلف ما تعرض له محيط مسجد سيدي إبراهيم ، عندما تم الاستيلاء على شواهد القبور في المقبرة الملحقة بالمسجد وتم بعثرت الهياكل العظمية والجماجم في العراء دون احترام قدسية الأموات[14] . يقول المؤلف " Malheur au vaincu , c'est ici la loi du plus fort , or le plus fort n'ecouteni les cris des vivants , ni les plaints des morts

هذا عن مصير التراث المادي لمدينة تلمسان ، أما تراثها المكتوب من نفائس المخطوطات والكتب في شتى مجالات المعرفة الإنسانية ،والتي كانت تزخر بها مكتبات المدينة ،فلم تسلم هي أيضا من الحرق والتخريب ، ويذكر المؤلف أن المخطوطات كانت تنزع بالقوة من مالكيها ، وهذا أثناء الحملات العسكرية ، فقد تم الاستيلاء على نسخة من كتاب " الجمان في أخبار الزمان " للشاطبي ، خلال هجوم عسكري على أحد مداشر قبيلة بني سنوس سنة 1845[15]. وفي السياق نفسه ، نقل المؤلف شهادة " سي محفوظي " الذي قال : " قبل الاحتلال كان يوجد في مدينة تلمسان عدد معتبر منالمكتبات ومن العلماء المرموقين ، الذين هجروا بلدهم بسبب ما لحق بهم من أذى وكانت وجهتهم مدينة فاس ومدنامغربية أخرى ، حاملين معهم كنوزا أدبية ، وأنه هو شخصيا فقد أكثر من 200 مخطوط كان مزقها ونهبها الجنود الفرنسيون " [16].

ومن أشكال السياسات القمعية الفرنسية ؛ سياسة ترهيب السكان لردعهم عن أي محاولة تفكير في الثورة على الوجود الفرنسي . ومن الأساليب التي انتهجتها الادارة الاستعمارية ؛ التمثيل بالجثث وتركها في العراء معلقة على الأشجار . وقد نقل المؤلف شهادة أحد الضباط الفرنسيين ، يؤكد فيها " أن هذا النوع من الممارسات ضروري ، باعتبار أن هؤلاء ــ يقصد الجزائريين ــ قوم متوحشون ولا يحكمون إلا بالقوة ، وأننا أي الفرنسيين ، سنكون حمقى ، إذا اتبعنا إجراء آخر غير هذا "ويضيف على لسان أحدهم L'Arabe , ne connait que le Sabre et le Bâton[17].

وكانت لهذه السياسات أثار تدميرية على المجتمع الجزائري ، فقد أدت سياسة الأرض المحروقة والتدمير الشامل لموارد الجزائريين الى خراب البيوت والمزارع ، بعد أن أرغمت العديد من القبائل الجزائرية على الهجرة وترك أراضيها ، وقد لاحظ المؤلف كيف أن اراضي خصبة قد أصابها الخراب وتحولت الى اراضي مقفرة بسبب تخلي أصحابها عنها ، ومثال ذلك الأراضي المحاذية لنهري تفراوة ووادي سبدو[18].

الأحوال الاجتماعية والاقتصادية :

إن رحلة "بورجيس " تمدنا بمعطيات وبمعلومات جد قيمة ، عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان عليها المجتمع في مدينة تلمسان وضواحيها . ومما يستنتج في هذا السياق ؛ هو استمرار سمة الطابع الزراعي والرعوي للمجتمع الجزائري دون تغيير ، رغم مرور عشر سنوات على الاحتلال الفرنسي للجزائر.

قبل استعراض ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية هذه ، علينا أن نشير أن التركيبة السكانية في مدينة وتلمسان كانت تتكون من مجموعات عرقية متنوعة . منها ؛ الحضر والأوربيين والكراغلة واليهود . أما عن التعداد السكاني للمدينة ، فإن المؤلف يذكر ؛ أن سكان المدينة قد تناقص عددهم الى النصف طبعا هو لا يقف على خلفيات هذا التناقص ، وإنما يشير الى أن عدد سكان المدينة قبل سنة 1833 كان حوالي 20000 نسمة [19] ، ليصل سنة 1846 الى 6826 نسمة ، مقسمين على 2670 كرغلي ، 2070 من الحضر ، 1585 من اليهود . 500 من الأوربيين[20] ،أغلبهم من الإيطاليين والإسبان سيئ السمعة [21] دون حساب تعداد الجيش الفرنسي ومرضاه في المستشفيات. لكن هذا الإحصاء الذي أورده غير كامل باعتبار أنه لم يضمنه الشرائحالاجتماعية الأخرى ، مثل البرانية وسكان الأرياف

الذين كانوا يمثلون الغالبية الساحقة في التركيبة السكانية للمجتمع الجزائري في تلك الحقبة التاريخية .

إن ما يلفت الانتباه ،أن المؤلف قد أفرد حيزا في رحلته لطبقتين رئيسيتين في المجتمع التلمساني الأولى طبقة الحضر والثانية اليهود. في تطرقه لطبقة الحضر، يقف عند التدهور والتراجع الذي تعرضت له هذه الطبقة ، التي لعبت أدوارا بارزة في التطور التاريخي والحضاري للمجتمع التلمساني . إلا أن التحولات الداخلية والخارجية ، التي كانت مدينة تلمسان مسرحا لها ، ساهمت مساهمة كبيرة في انكماش وتقلص وتراجع دور هذه الطبقة في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . يبدأ المؤلف كلامه عن هذه الطبقة ؛ بأن أفرادها استقروا في الجهة الشمالية من المدينة ، وأن أصولها العرقية تعود الى العرب الذين فتحوا افريقيا[22]. ثم ينتقل الى النشاطات التي كانت تمارسها هذه الطبقة ، ويحصرها في المجال

الصناعي والتجاري والزراعي . إلا أنه يؤكد ؛ أن النشاط الصناعي كان الأبرز ، وهذا من خلال تخصص أفرادها في الصناعات النسيجية والحرفية ، وأنها كانت تمارس نشاطها هذا في حي السويقة الذي أضحى سوقا صغيرا في أحد شوارع المدينة . وكان هذا الأخير يتكون من عدد من الورشات والدكاكين والمخازن ، تباع فيه الملابس القطنية والحريرية من برانيس وحياك ، والأسلحة وأدوات المطبخ وهذا التنوع في البضائع جعله مقصدا للتبضع من طرف سكان المدينة وضواحيها[23].

ويشير المؤلف في الاطار نفسه ، الى أحد التحولات المهمة الدالة على انخفاض وتيرة النشاط التجاري والصناعي في مدينة تلمسان ولدى هذه الطبقة ؛ هو أنه قبل هذا التاريخ كان النشاط يعرف رواجا وازدهارا واتساعا وتنوعا ، الى درجة تخصص كل شارع في حرفة معينة . أما الآن فقد تم تجميع التجار والحرفيين في حي واحد هو حي السويقة [24] . ويحض المؤلف الحكومة الفرنسية،

على إحياء دور مدينة تلمسان الاقتصادي وبصفة خاصة التجاري منه ، باعتبارها تحتل موقعا استراتيجيا ممتازا ، أهلها قبل هذا التاريخ ؛ لأن تحتل الريادة التجارية الأولى بين مدن المغرب العربي وتتحول الى مستودع للتجارة الجزائرية مع أوربا وإفريقيا وبلاد السودان . ومنه على الحكومة الفرنسية ، أن لا تترك المجال للقوى الأوربية وبصفة بريطانيا للسيطرة على هذا النشاط . وهنا نشير أن المؤلف افرد حيزا معتبرا لدور تلمسان وتجارها عبر مختلف الدول التي حكمتها [25] .

أما عن طائفة اليهود في مدينة تلمسان ، فإن ما أورده المؤلف حولها في عمومه ، لا يختلف عن ما ذكرته كتب التاريخ . إلا أن المؤلف نجده يطنب كثيرا في الجوانب الفكرية والدينية والأدبية لليهود، وموقفهم من الديانات السماوية الإسلام والمسيحية . ومن النقاط التي أشار إليها ، موقف التلمسانيين ونظرتهم لليهود . فقد كانت هذه الأخيرة ، نظرة ازدراء واحتقار . ويدعم ذلك بآراء بعض التلمسانيين التي تفسر خلفيات هذه النظرة ، والنابعة أصلا من اعتبارات دينية . ويدعم المؤلف ذلك ، بمصطلح شائع كان التلمسانيون يتداولونه في أحاديثهم عن اليهود وهو "Benidjifah" [26].

كان يهود تلمسان يمارسون طقوسهم الدينية في خمسة معابد كانت منتشرة في المدينة ، إلا أن وضعيتها لا تختلف عن وضعية معالم المدينة التاريخية الأخرى[27] . أما نشاط هذه الطائفة ، وبصفة خاصة العائلات الغنية منها ، فقد كانت تمارس نشاطها التجاري في محيط قلعة المشور ، تمتهن تجارة الخردوات والملابس ، مثل الجوارب والمحارم والشالات الإنكليزية ، التي كانوا يأتون بها من تطوان وطنجة المغربيتين . ويورد المؤلف سلوكا أتصف به التجار اليهود ، وكان شائعا بين الوسط التجاري التلمساني ، وهو ممارسة التهريب والتضليل[28] .

ويرجع المؤلف توتر العلاقة بين التلمسانيين والطائفة اليهودية الى التراكمات القديمة بين الطرفين والتي زادت في انكفاء الطائفة على نفسها ، وقطع

أي رباط تواصل بينها وبين محيطها المديني الذي كانت تعيش فيه . وربما ساهمت الحظوة التي أصبح البعض من أفرادها يتمتعون بها في ظل الحكم الفرنسي، سببا آخر في تعميق الشرخ والتباعد بين الطرفين .

أما ما جاء في الرحلة عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية العامة التي كان عليها المجتمع التلمساني فقد كانت قليلة ، إلا أن ما ذكر في هذا المجال ، كان ذا دلالات تاريخية وحضارية كبيرة . تتلخص في أن سمة المحافظة على الموروث الحضاري لدى مجتمع مدينة تلمسان وضواحيها ، استخدم كسلاح لتعميق روح المقاومة بين قوى المجتمع وترسيخ لمبدأ الانتماء الديني والحضاري ، في وجه الهجمة الشرسة التي تعرض لها الجزائريون على يد المحتلين الجدد. وهكذا لم تكن مقاومة الجزائريين منحصرة في الجانب العسكري ، لكن تعدته الى الجانب المعنوي والنفسي والروحي . وهذا ما يستشف من الأحاديث واللقاءات التي جمعت بين المؤلف والعديد من فعاليات مجتمع مدينة تلمسان والذين ــ أرغمتهم الظروف على العمل مع الإدارة الاستعمارية ــ إلا أنهم بقوا محافظين ومتمسكين بذاتيتهم وشخصيتهم الحضارية العربية الإسلامية ، رغم وسائل الإغراء والامتيازات التي أغدقت عليهم من طرف الفرنسيين

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية التي ذكرها المؤلف ، احتفالات التلمسانيين بالمناسبات الدينية ، ومنها مناسبة عيد الفطر . فبعد صلاة العيد ، يتوافد على المدينة الآلاف من الفرسان من مختلف القبائل وذلك من أجل التباري وتقديم استعراضات . ويذكر المؤلف ؛ أن سكان المدينة في ذلك اليوم يتوجهون كلهم الى الميدان المخصص لذلك خارج المدينة . وهم فرحين ويرتدون أجمل الملابس[29] .

وكذلك من المظاهر الاجتماعية الأخرى ؛ الاحتفال بجني الكرز في فصل الربيع . ويقول المؤلف عن هذه الاحتفالية ، أنها عبارة عن لقاء سنوي ، إذ يخرج فيه سكان مدينة تلمسان للترفيه واستنشاق الهواء الطيل والتمتع بمباهج الطبيعة .

ويقول أيضا ؛ أن العائلات الغنية في المدينة تخرج برفقة مواكب موسيقية تنشد وتغني ، ويضيف أن هذه الاحتفالية تستمر الى غاية نهاية جني الكرز [30] . ويذكر المؤلف أيضا أن من الأماكن التي كان يقصدها سكان مدينة تلمسان للترفيه والتنزه؛ منبع اللوريط وضفاف وادي المفروش ، حيث تتوفر المياه وجمال الطبيعة.

ويتضح أن سكان مدينة تلمسان كانت علاقتهم بالطبيعة قوية ، وأن هذه الأخيرة كانت تحتل مكانة كبيرة في وجدان الموروث الشعبي التلمساني ، وهذا ما تدعمه تلك النماذج الشعرية التي استشهد بها المؤلف ، لشعراء تلمسانيين يتغنون بالطبيعة وجمالها .

ويستعرض المؤلف أيضا ، تقاليد التلمسانيين بالاحتفال بالزواج ، حيث يرافق العريس فرقة موسيقية في تنقلاته وتوقفاته ، زيادة على عدد من الشعراء والموسيقيين والمدعوين الذين يوصلونه الى بيت الزوجية وهو مرتديا اللباس التقليدي الأشهر عند التلمسانيين وهو "البرنوس" [31] . أما عن وضعية المرأة التلمسانية ودورها في الحياة الاجتماعية ، فلم يرد عنها في الكتاب سوى اشارتين، تدل الأولى على أن المجتمع التلمساني كان مجتمعا رجاليا ، إذ يذكر المؤلف ، أن حرية المرأة كانت أسيرة قانون الحريم ، فلم يكن يسمح لها بالخروج لوحدها من بيتها سوى للتوجه للمقابر أولزيارة الأولياء [32]. أما الإشارة الثانية ، فهي عن اللباس الذي كانت ترتديه المرأة التلمسانية خارج بيتها والمتمثل في الحايك هذا الغطاء الذي تخصصت في صناعته ورشات حرفية محلية .

ومن سمات الحياة الاجتماعية أيضا ؛ مظاهر الترف والبذخ التي كانت تعيشها فئات وشرائح طبقة الخاصة ،وبالمقابل كانت العامة من الناس تعاني العوز والفقر . وهذا التفاوت الطبقي الحاد والصارخ الذي كان عليه مجتمع المدينة ، يستخلص من العديد من اللقاءات والزيارات التي سنحت للمؤلف أثناء تواجده في

المدينة . ويمكن تفسير الفروق الاجتماعية في مستويات المعيشة الى الواقع الاستعماري الجديد الذي أضحت تعيشه الجزائر .

فالسياسة الفرنسية منذ سنة 1830 ، انتهجت مبدأ تهديم البنى الاجتماعيةوالاقتصادية والفكرية التي كان عليها المجتمع الجزائري، ثم إعادة تشكيله من جديد ، انطلاقا من منظور يخدم مصالحها وأهدافها الاستعمارية في الجزائر. ومنها خلق طبقة اجتماعية جزائرية وتمكينها ماديا ومعنويا ، لتكون أداة مساعدة لها في حكم الجزائريين . وهذا ما يستنتج من العينات التي ذكرها المؤلف . وقد تميزت هذه الطبقة المتنفذة بالثراء والنفوذ ويتجلى ذلك في مظاهر البذخ والإسراف في موائد الطعام ، التي تقام على شرف ممثلي الإدارة الاستعمارية [33] .

الأحوال العمرانية :

أخذت الناحية العمرانية حيزا مهما في رحلة " بارجيس " ، فلا يخلو فصلا من فصول الرحلة من هذا الجانب المعرفي الوصفي . وكانت حصة الأسد من نصيب مدينة تلمسان . حيث وصف تركيبتها السكانية وأزيائهم والطبيعة الطبوغرافية للمدينة ومناخها ومواردها المائية ،وصناعاتها وأسواقها . إضافة الى أسوارها وأبوابها ومنازلها وآثار علماءها وملوكها ومعابدها ومدارسها ، دون أن يهمل الآثار غير الإسلامية والأحياء والضواحي التي كانت كلها تشكل النسيج العمراني للمدينة .

وما يلفت الانتباه في الدراسة الوصفية هذه ، أن الكاتب لا يكتفي بالوصف الخارجي وإنما يثريه بالتأريخ للمكان أو المعلم ، في سرد تاريخي لأهم الأحداث والتطورات التاريخية ومساهمات الملوك والسلاطين المرتبط بهذا المعلم أو ذاك . مدعما أراءه بمجموعة المصادر الأوربية والاسلامية العامة والمحلية ومما زاد في القيمة العلمية لهذا العمل ، هو قدرة المؤلف الفائقة على المزج بين الدراسة

التاريخية والدراسة الأثرية للمكان ، مما يمكن القارئ الباحث ، من الإلمام بمختلف جوانب الموضوع .

ومن المعالم والمآثر العمرانية التي وردت في الرحلة ، والتي يمكن اعتبارها من السمات الحضارية لمدينة تلمسان والمدن المرتبطة بها ، والدالة على درجة الرقي والتطور الحضاري الذي كانت عليه هذه المدينة والتي في نفس الوقت أثارت انتباه وإعجاب الكاتب ، وكانت وراء انتقاده للأحكام المسبقة التي أطلقها أمثاله من الفرنسيين الأوربيين ، التأخر الفكري والحضاري لدى الجزائريين[34] . ومما قاله في هذا السياق : " أنه حين وصل مدينة تلمسان ، كان يظن مثل بقية العالم أن التقاليد العلمية والأدبية قد ضاعت بين الأهالي [35]. كيف لا والكاتب أحصى في مدينة تلمسان لوحدها حوالي واحد وستون جامعا[36] من أشهرها ؛ الجامع الكبير الأعظم ، جامع سيدي إبراهيم ، جامع سيدي الشعار ، جامع سيدي السنوسي ، جامع سيدي الحلوي ، هذا الأخير الذي يعتبره الكاتب من أجمل جوامع مدينة تلمسان[37] . ومن المعالم العمرانية التي أثارت إعجاب الكاتب ، ساعة المجانة في المشور والتي تعتبر تحفة الأعمال الهندسية البديعة في مدينة تلمسان . التي اخترعها العالم الرياضي التلمساني أبو حسان علي بن أحمد في أواخر القرن الرابع عشر[38]

وكذلك احتوائها على 16 عشرة بابا ، من أشهرها على سبيل المثال لا الحصر ؛ باب الجياد، باب الحلوة، باب فاس ، باب وهران، باب الحديد ، باب الزير ، باب الخميس ، باب أغادير ، باب كوشطة باب القرمدين . أما اشهر مدارس مدينة تلمسان التي ورد ذكرها في الرحلة نذكر ؛ المدرسة اليعقوبية ، المدرسة الجديدة والقديمة ، مدرسة أولاد الإمام ، المدرسة التاشفينية . وكانت هذه المدارس عبارة عن معاهد أو جامعات ، تدرس مختلف العلوم مثل ؛ الأدب وعلم الجدل ، والشريعة ، والتاريخ والرياضيات ، القواعد ومن الشخصيات العلمية التي درست في هذه المدارس العالم سيدي حمادي بن السقاق . وهو شخصية كانت محل

احترام لدى الكاتب ، حيث يقول عنه ؛ أنه درس علوم الآداب والشريعة في مدينة تلمسان وأنه حاز على لقب الفقيه ، وقضى عشرون سنة في التدريس في مسجد الكبير ، وكان يتمتع بنفوذ واحترام كبيرين بين التلمسانيين[39] . وعلى ذكر علماء مدينة تلمسان المشاهير ، فإن الكاتب خصص للبعض منهم ترجمات مفصلة ضمنها مشوارهما العلمي وأقوالهما ومؤلفاتهم ، مثل أبو محمد عبد السلام التونسي وسيدي بومدين شعيب أنظر[40] .

توجهات وميول استعمارية :

رغم القيمة العلمية و التاريخية التي تكتسيها رحلة "Barges" ، إلا أنها لم تخلو من بعض الأفكار والتحليلات التي عودتنا عليها المدرسة التاريخية الفرنسية في نظرتها الى الجزائر وتاريخها . ورغم أن Barges في مقدمة رحلته ، يؤكد على أنه كتب كتابه هذا متجردا من كل ميل أو إيحاء وأن هدفه الحقيقة العلمية . إلا أن هذا الاقرار لم يمنعه من الانسياق وراء أطروحات ومفاهيم وتفسيرات ذات توجه استعماري .، نجد مؤيديه في صفوف المدرسة الاستشراقية الفرنسية ، التي ينتمي إليها Barges

من بين المآخذ التي تؤخذ على " Barges " جملة من التناقضات منها على سبيل المثال لا الحصر فمن جهة ، يظهر تحسرا للأوضاع السيئة التي كان عليها المجتمع التلمساني نتيجة حالة الفقر والبؤس التي كان يعيشها، ومن جهة أخرى ، يظهر حماسا لفكرة احتلال وإلحاق الجزائر بفرنسا ، ومن ثمة دمجها في الحضارة الأوربية [41]. وعند كلامه عن ظاهرة هجرة الجزائريين لأراضيهم ، يتأسف لماذا لا يأتي فقراء فرنسا ، ليستغلوا هذه الأراضي ، التي يقول عنها ؛ أنها الآن تحت رحمة اللصوص ، ويقصد بهم رجال المقاومة [42]. ومن المآخذ أيضا ؛ أن المؤلف معجب بالشخصيات التلمسانية المتعاونة مع الإدارة الاستعمارية ، فنجده يمتدحها في بعض الأحيان بإطناب ، دون أن يلتفت الى حياة الرفاه والأبهة والبذخ التي كانت

عليها هذه العينة من المجتمع التلمساني ، إذا ما قورنت مع الغالبية من المجتمع التي تعيش الحياة الضنكة . ويقدم المؤلف الوصفة السحرية للجزائريين للخروج من حالة التخلف والبدائية متمثلة في ضرورة اقتباس أنماط وأساليب الحضارة الأوربية . وهذا يتأتى ؛ بإرسال أبناء العائلات العربية الى مدارس ومعاهد فرنسا للدراسة ، وهناك تتم عملية تنشئتهم على النموذج الأوربي .

وللاستدلال على نجاعة اقتراحه هذا وأهميته ، يستدل بنجاح تجربة الإصلاحات الغربية التي بدأت في تطبيقها كل من الدو ة العثمانية ومصر في القرن التاسع عشر ، وأنهما ، أي الدولتان استطاعتا تحقيق نتائج باهرة تمكنهما من اللحاق بالركب الحضاري الأوربي[43]. لكن السؤال الذي لم يجب عليه ؛ ماذا جنت كل من الدولتين من وراء وهم التحضر الأوربي ؟ . زيادة على عدم استعداد المجتمع الجزائري أصلا لخوض غمار هذه التجربة انطلاقا من مبدأ قد كرره كثيرا في فصول رحلته ؛ وهو أن الجزائريين رافضين أصلا الوجود الفرنسي على أرضهم [44]. فكيف إذن يكون التواصل والقبول بالآخر؟

إحـــــالات الدراســـــة :

1 ـ من الدراسات التي تناولت أدب الرحلة والرحلات كتاب ، حسين محمد فهيم : أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، الكويت 1989 .

2 ـ ولد المستشرق الفرنسي بارجيس في بلدة أوريوليمحافظة مصبات الرون جنوب فرنسا ، وذلك في 27 فيفري 1810 وتوفي في 1 أبريل 1896 . في سنة 1834 تم ترسيمه قسيسا ، وعين أستاذا للغات الشرقية في كلية اللاهوت بجامعة السوربون من عام 1842 الى غاية 1896 . أصدر عدة دراسات وأبحاث في الآثار والتاريخ والأدب ، تخص اليهود والفنيقيين والكنيسة المسيحية . وقد نشرت أغلب أعماله في عدد من المجلات منها ؛ حوليات الفلسفة المسيحية ، مجلة المشرق والجزائر والمستعمرات ، المجلة الأسيوية . أما ما يتعلق بالدراسات العربية ، فأشهرها ؛ ترجمته لكتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان من تأليف ابي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي في

1852 . وله أيضا تكملة تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، الصادر 1887 . وترجم أيضا كتاب الصحراء والسودان لسيدي الحاج عبد القادر بن ابي بكر التواتي عن الصحراء الكبرى والسودان سنة 1853. للتوسع أنظر :

Barré. H : Les Bouches – du - Rhone EncyclopedieDepartementale , Marseille Archives Departementales des Bouches- Du – Rhone , 1913

3 ــ أنظر ص ، ص 137 – 138 .

4 ــ أنظر ص 143 .

5 ــ أنظر ص ، ص 145 – 146 .

6 ــ أنظر ص ، ص 135 .

7 ــ أنظر ص ، ص 110 .

8 ــ أنظر ص 203 .

9 ــ أنظر ص 93 .

10 ــ أنظر ص 93 .

11 ــ أنظر ص 359 .

12 ــ أنظر ص 386 .

13 ــ أنظر ص 387 .

14 ــ أنظر ص 393 .

15 ــ أنظر صص424 – 426 .

16 ــ أنظر ص 244 .

17 ــ أنظر ص 149 .

18 ــ أنظر ص 144 .

19 ــ أنظر ص 206 .

20 ــ أنظر ص 203 .

21 ــ أنظر ص 106 .

22 ــ أنظر ص 204 .

23 ــ أنظر ص 216 .

24 ــ أنظر ص 218 .

25 ــ أنظر ص 206 .

26 ــ أنظر ص 102 .

27 ــ أنظر ص 104 .

28 ــ أنظر ص 220 .

29 ــ أنظر ص 90 .

30 ــ أنظر صص313 – 314 .

31 ــ أنظر ص 184 .

32 ــ أنظر ص 441 .

33 ــ أنظر ص 243 .

34 ــ أنظر ص 222 .

35 ــ أنظر ص 223 .

36 ــ أنظر ص 421 – 424 .

37 ــ أنظر ص 413 .

38 ــ أنظر ص ص 368 – 379 .

39 ــ أنظر ص 243 .

40 ــ أنظر الفصل 13 .

41 ــ أنظر ص 63 .

42 ــ أنظر ص 63 .

43 ــ أنظر ص 321 .

44 ــ أنظر ص 63 .